﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ٢١﴾ [يونس: 21]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

عـادةُ المشركين المكرُ والجحودُ والعِنادُ وعدمُ الإنصافِ وكفرانُ الإحسانِ

في مناسبةِ هذه الآيةِ لما قبْلَها وجهان:

الأول: بعد أنْ ردّ الله تعالى على المشركين الطّالبين إنزالَ آية كونيّةٍ غيرِ القرآن بأنّ هذا منَ الغيبِ المستأثَرِ به بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٢٠﴾ [يونس: 20]، ذكرَ جوابًا آخرَ، وهو أنّ أولئك المشركين لا يَقنَعون بالآيات إذا رأوْها بأعينِهم؛ لأنّ عادتَهم المكرُ والجُحودُ والعِنادُ وعدمُ الإنصاف، فكثيرًا ما رأَوُا الآياتِ الدّالّةَ على وَحدانيّة الله ثمّ يَمكرون فيها، فهم إن أصابتْهمُ الشّدّةُ تضرّعوا، وإن جاءتهمُ الرّحمةُ بطِروا وكفروا، فقال: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ﴾.

الثاني: لمّا كان طلبُ الكفّار الواردُ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾ [يونس: 20] مُحرِّكًا لنفوس الخيّرين إلى ترجّي إجابةِ سؤالهم، أتبعَه سبحانه بما يُبيّنُ أنّ ذلك غيرُ نافعٍ لهم؛ لأنّ طلبَهم محضُ تعنّتٍ مبيِّنًا أنّ رحمته محقّقةُ الوجود كثيرةُ الورودِ إليهم، وأنّ لهم آيةً عُظمى من أنفُسِهم لا يحتاجون معها إلى التّعنُّتِ بطلبِ آيةٍ؛ وهي دالّةٌ على نتيجةِ مقصودِ السّورة الذي هو الوَحدانيةُ وأنّ إشراكَهم هو كفرانٌ للإحسان، فقال: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾[1].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/95.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَذَقْنَا﴾: الذّال والواو والقاف أصلٌ واحدٌ، وهو اختبارُ الشّيءِ من جهة الطّعمِ، وأمرٌ مُستذاقٌ: أي مجرّبٌ معلومٌ[1]، والذّوقُ هو وجودُ الطّعم بالفم، وأصلهُ فيما يقلُّ تناوُلُه دون ما يَكثرُ منهُ[2]، والذّوقُ يكون فيما يُكره ويُحمدُ، ومعظمُ ما جاء في القرآن الكريم من تركيب (ذوق) مجازيٌّ؛ ذوقُ عذابٍ، أو ذوقُ نعمةٍ ورحمةٍ[3]. وأَذَقْنا: أصبْنا، وهو هنا مجازٌ في إدراكٍ معنويٍّ، وهو الرّحمةُ والنّعمةُ التي أصابتْهم بعد الضّرّاء[4].

2) ﴿ضَرَّآءَ﴾: الضّرّ: خلافُ النّفعِ، يقال: ضرّه ضرًّا: ألحقَ به أذًى أو مكروهًا[5]، والضُّرّ والضّرَرُ: سوءُ الحال إمّا في النّفس؛ لقلّةِ العلم والفضل والعفّةِ، وإمّا في البدن؛ لفُقدانِ جارحةٍ ونقصٍ، وإمّا في حالةٍ ظاهرةٍ من قلّةِ مالٍ وجاهٍ[6]، والضّرّاء: النّقصُ في الأموالِ والأنفسِ، والسَّنَةُ (أي الجدْبُ والقحْطُ) وغيرها، وكلُّ ما يقابل السّرّاء بالنَّعماء[7].

والضّرّاء هنا موافقةٌ لمعناها اللّغويّ، وتعني: الشّدّةَ والبلاءَ والقحْط، والجوعَ والفقر والمرضَ، والخوفَ وغيرَها[8].

3) ﴿مَسَّتْهُمْ﴾: الميم والسّين أصلٌ واحدٌ يدلّ على جَسِّ الشّيء باليد[9]، والمسّ: مباشرةُ الجسم، والمسُّ يُقال فيما يكون منه إدراكٌ بحاسّةِ اللّمسِ، فالمسُّ كاللّمسِ، لكنّ اللّمسَ قد يُقال لطلبِ الشّيء وإن لم يوجَد، والمسّ يُقال في كلّ ما ينالُ الإنسانَ من شرٍّ[10]، وحقيقةُ المسّ: وضعُ اليد على شيءٍ ليُعرف وجودُه أو يُختبرَ حالُه، ثم يُسمّى كلُّ ما يصلُ إلى الشّيء ماسًّا على سبيل التّشبيه، فيقال: فلانٌ مسّهُ التّعبُ والنّصَبُ، وقدِ استُعمل المسُّ في أكثرِ ما ورد في القرآن الكريم بمعنى الإصابة بمكروه، وإيقاعِ الضّرّ ونحوِه، ويُكنّى أيضًا بالمسّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذوق).
(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ذوق).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ذوق).
(4) السمرقندي، بحر العلوم: 2/109، والحجازي، التفسير الواضح: 2/51.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضر).
(6) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ضرر).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ضرر).
(8) النسفي، مدارك التنزيل: 2/13، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/109، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/140.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مس).
(10) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مس).

عنِ الجماع، وعنِ الجنون[1]. ومسَّتْهم: أصابَتْهم وخالطَتْهم حتى أحسّوا بسوءِ أثرِها فيهم[2].

4) ﴿مَّكْرٌ﴾: الميم والكاف والراء كلمتان متباينتان: إحداهما المكرُ: الاحتيالُ والخِداع، والأخرى المكرُ: خَدالةُ السّاق[3]، ومادّة الكلمةِ فيها معنى الاختزانِ الرّقيق، أوِ اللّطيفِ الذي لا يَبرزُ مُتميِّزًا، فالمكرُ: هو تدبيرٌ (يُخْفَى ويُخْتَزَن) لأَحْداثٍ أو أُمور لتقعَ في المستقبل على نحوٍ ما، والمكرُ احتيالٌ في خُفيةٍ[4]، وعرّفه الراغب بأنّه: "صرفُ الغَير عمّا يقصِده بحيلةٍ، وذلك ضربان: مكرٌ محمودٌ؛ وذلك أنْ يتحرَّى بذلك فعْلَ جميلٍ، وعلى ذلك قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾ [آل عمران: 54]، ومكرٌ مذمومٌ؛ وهو أن يتحرَّى به فعْلَ قبيحٍ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ [فاطر: 43]"[5].

والمكر هنا: يشملُ الكفرَ والجُحودَ والنّفاقَ والاستهزاءَ والتّكذيبَ[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

سـوءُ طبـعِ الكفّارِ يجعلُهم يُسرعون بالمكْرِ في مقامِ الشُّكرِ

يبيّن الله تعالى تنكُّرَ المشركين للأدلّةِ العقليّةِ والحسّيّةِ والقواعدِ الخُلُقيّةِ التي تقتضي شُكرَ النّعمةِ الإلهيّةِ، فإذا أذاقهمُ الله رحمةً من بعد ضرّاءَ مسّتْهم، كالرّخاء بعد الشّدّة، والخصْبِ بعد الجدْبِ، والمطرِ بعد القحْطِ، إذا هم يُسرعون بالمكر في مقام الشّكر استهزاءً بآيات الله، وتكذيبًا، وتنكُّرًا، فيردُّ الله عليهم على لسان رسوله بأنّه أسرعُ استدراجًا وجزاءً لهم على مكائدِهم قبْلَ أن يُدبّروها؛ لأنّه لا يخفَى عليه شيءٌ من مكرِهم، فله حَفظةٌ منَ الملائكة يَكتبون جميعَ ما يَمكرُه الكفّارُ، ويَعرضونه على عالِم الغيب والشّهادةِ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (مس).
(2) البغوي، معالم التنزيل: 4/127، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/140.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مكر).
(4) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (مكر).
(5) الراغب، المفردات: (مكر).
(6) الماوردي، النكت والعيون: 2/430، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/258.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو في: ﴿وَإِذَآ﴾:

في العطفِ زيادةُ بيانٍ لتعنُّتِهم، وفي الاستئنافِ تقريرٌ لهذا التّعنُّت

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً﴾ تحتمل وجهين:

أحدهما: أن تكون عاطفةً، والمعطوفُ عليه هو قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٢٠﴾ [يونس: 20]، وفائدة العطف: زيادةُ بيانٍ بذكرِ جوابٍ آخرَ على طلبِهم المعجزاتِ؛ بأنّ رحمته سبحانه محقّقةُ الوجود كثيرةُ الورود إليهم، وأنّ لهم آيةً عُظمى من أنفُسِهم لا يحتاجون معها إلى التّعنّتِ بطلَبِ آية[1].

الآخرُ: أن تكون الواو استئنافيّةً و(إذا) ظرفٌ لمّا يُستقبلُ منَ الزّمان خافضٌ لشرطِه منصوبٌ بجوابه، وفائدتُه: تقريرُ المعنى السّابقِ؛ وهو تعنّتُهم بجملةٍ شرطيّةٍ تستحضرُ نَموذجًا لحالة تعنّتٍ حصلَ فيما مضى منزلةَ الواقعِ المشاهَدِ في الحال.

معنى ﴿وَإِذَآ﴾ ودلالةُ دخولها في: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً﴾:

(إذا) لِتحقُّقِ الوقوعِ، فمكرُ الكافرين وانقلابُهم على الفطرةِ أمرٌ مقطوعٌ بوُقوعِه

استعمل القرآنُ ﴿وَإِذَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً﴾ دونَ (إن) كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةً﴾ [هود: 9]؛ لأنّ من شرطِ (إذا) أن يكونَ التّعليقُ بها على أمرٍ معلومٍ مقطوعٍ بوقوعِه، أو كثيرِ الوقوع، بخلاف (إنْ) فإنّها لا يكونُ التّعليقُ بها إلّا في مُبهمٍ مشكوكٍ فيه[2]، أي لِما هو أقلُّ عمومِ الشّرط، أو لِما هو نادرٌ، أو لِما ليس له وجودٌ أصلًا، وقد يكون آكدَ، وقد يكونُ مستحيلًا، وقد يكونُ قليلًا.

والحديثُ هنا عن طِباع الكفّار وعادتِهم في الانقلاب على الفِطرة، والمسارعةِ في المكرِ، ولذا ناسبَ استخدامَ (إذا) دون (إنْ) للإشارةِ إلى ذلك.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/95.

(2) ابن نور الدين، مصابيح المغاني في حروف المعاني، ص: 84، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/309.

أو أنْ يكون سرُّ الاستعمال في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ هو كونُ رحمةِ الله محقّقةً تصيبُ عمومَ الناس، أمّا في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ [هود: 9] فالحديث عن واحدٍ، وقوله: ﴿ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ﴾ [هود: 9] هي حالة أقلُّ من الأولى، وهي حالةُ تربيةٍ[1].

دَلالةُ الجملةِ الشّرطيّةِ وفائدتُها في: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾:

اسْتِحضارُ حالةِ فعلٍ حَصلَ فيما مضى منزلةَ الواقعِ المشاهَدِ في الحال

المشهورُ أنَّ الشّرطَ والجزاءَ لا يتعلّقان إلّا بالمستقبل، فإنْ كان ماضيَ اللّفظ كان مستقبلَ المعنى[2]، ولكنْ جيء بعده في نظم الكلام بالحرف الدّالِّ على المفاجأةِ، التي من حقِّها أن تكونَ حاصلةً زمنَ الحال لا الاستقبالِ، وبالتّالي تكونُ فائدةُ دلالةِ الجملةِ الشّرطيّةِ التي دخلت عليها (إذا) الفُجائيّة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ استحضارَ حالةِ فعلٍ حصلَ فيما مضى ﴿أَذَقْنَا﴾ منزلةَ الواقعِ المشاهَدِ في الحال[3].

بَلاغةُ الاستعارةِ في التّعبيرِ بالإذاقةِ في: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا﴾:

رحمةُ الله تعالى لا تُـذاقُ بالفمِ وإنّما تُحَسُّ

الإذاقةُ في الأصل تَناوُلُ الشّيء القليلِ بالفم لإدراك الطّعامِ واختبارِه، ثم استُعيرت للإحساسِ بالرّحمة، حيث شُبِّه ذلك الإحساسُ بذوقِ الطّعم بجامعِ سُرعةِ اتّصالِ الإحساسِ بالإدراك، وسُرعةِ زوالِه كما تزولُ الطُّعومُ[4]، فالمشَبَّهُ هو إصابةُ المشركين بالرّحمة، والمشبَّهُ به هو الإذاقةُ بالفمِ، ووجهُ الشَّبه هو سرعةُ الإحساس بالشّيء القليلِ واختبارِه، والاستعارةُ تصريحيةٌ لحذفِ المشبّهَ، والتّصريحِ بالمشبَّهِ به.

(1) السامرائي، لمسات بيانية: 5/339.
(2) إبراهيم الشمسان، الجملة الشرطية عند النحاة العرب، ص: 150.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/34.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/133.

وفي هذه الاستعارةِ إشارةٌ إلى إسراعِهم بالمكرِ؛ أي من بدايةِ مُخالطتِهم للنّعمةِ كفروا بصاحبِها سبحانه، إذِ الذّوقُ هو أوّلُ المخالطةِ[1]، وتنبيهٌ على أنّ الإنسانَ بأدنى ما يُعطَى منَ النّعمةِ يَأشَرُ ويَبطَرُ، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: 6 - 7][2]، ودلالةٌ على أنّهم تَمتّعوا بعد الحِرمانِ[3].

نُكتةُ الإضافةِ: ﴿أَذَقۡنَا﴾:

تعظيمُ ما عظَّمَ اللـه، وإسنادُ الرّحمةِ إليه والضّرّاءِ إلى غيرِه من كمالِ الأدبِ معه

أسندَ الفعلَ إليه سبحانهُ في مقام العظَمةِ إشارةً إلى سَعةِ جودِه؛ فرحمتهُ وسعتْ كلَّ شيءٍ، وإشارةً إلى عدمِ القُدرة على مخالفتِه، أي: أذقنا بعظَمتِنا التي لا يمكنُ مُخالفتُها[4].

كما أنّ في إسناد إذاقتِه الرّحمةَ إلى ضمير الجلالةِ، بخلاف المساسِ الذي أسنده إلى الضرّاء، ﴿ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ﴾؛ رعايةً للأدبِ مع اللّه تعالى؛ لأنّه وإنْ كان كلٌّ شيءٍ من عنده تعالى إلّا أنّ الأدبَ معه سبحانه يقتضي إسنادَ الخيرِ إليه، والشّرِّ إلى غيرِه كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ۝٨٠﴾ [الشعراء: 80][5]، وفي الحديث: «والخيرُ كلّه في يديك، والشرُّ ليس إليك»[6].

معنى (أل) في: ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

استحضارُ المعهودِ الذِّكريّ؛ وهمُ المشركون أو جميعُ الكفّارِ

المرادُ بـ﴿ٱلنَّاسَ﴾ النّاسُ المعهودون (المشركون) المتحَدَّثُ عنهم بقرينةِ السّياقِ على الوجهَيْن المتقدّمَيْن في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾[7]، وقيل: إنّ لفظَ النّاس عامٌّ لجميع الكفّارِ[8].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/96.
(2) الراغب، المفردات: (ذوق).
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3542.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 5/4.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/133، وسيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/48.
(6) مسلم، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، ص: 201.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/132.
(8) الآلوسي، روح المعاني: 6/89.

وحتى على القولِ بأنّ المرادَ همُ المشركون فإنّ هذا لا يمنعُ من أنْ يكونَ التّهديدُ عامًّا يشملُ كلَّ من جَحد نِعمَ اللّه سواء أكان الجحودُ منَ المؤمن أم منَ الكافر، قبل الضرّاء أم بعدها.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿رَحْمَةَ﴾ و﴿ضَرَّآءَ﴾:

رحمةٌ عظيمةٌ بعد ضرّاءَ عظيمةٍ تَستوجبُ دوامَ الشُّكرِ لا المكْرَ

أتى البيانُ القرآنيُّ بلفظِ (الرّحمة) و(الضّرّاء) في قوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ﴾ بصيغةِ النّكرةِ؛ لإفادة التّفخيم، أي: أكرمَهمُ اللّه رغْمَ عدمِ استحقاقِهم لرحمةٍ عظيمة لا يُحدُّ حَدُّها، ولا يُقدّرُ قدرُها، وخاصَّة أنَّها أُضيفت إلى ضمير الجلالةِ، وكان ذلك بعد ضرّاءَ عظيمةٍ نزلت بهم، وظهرت آثارُ ضُرّها عليهم.

وفي هذا التّنكير للّفظتَين الذي أفاد التّفخيمَ بيانٌ لشدّةِ جهلِهم وحُمقِهم؛ إذ إنّ عِظمَ الرّحمةِ التي حلّت بهم بعد ضرّاءَ عظيمةٍ يَستوجبُ دوامَ الشّكرِ لا السّرعةَ في المكرِ والكفرِ.

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿رَحْمَةً﴾:

الكفرُ بالرّحمةِ الإلهيّةِ رغْمَ عدمِ استحقاقِهم لها دَلالةٌ على فرْطِ قُبحِهم

التّعبيرُ بالرّحمة في موضعِ السَّراء؛ للإشارةِ إلى أنّها منَ الرّحمةِ الإلهيّةِ من غير أن يَستوجِبوا ذلك، أي "نعمةٌ رحمناهُم بها من غيرِ استحقاقٍ"[1]، فكان منَ الواجبِ عليهم أنْ يقوموا بحقّ اللّه، ويَخضَعوا لما تَدعو إليه الآيةُ، وهو توحيدُ ربّهم وشُكرُ نعمتِه.

معنى ﴿مِّنۢ﴾:

دلالةُ (مِنْ) على الابتداء ببيانِ لإسراعِ الكافرين بالمكْرِ

حرفُ الجرّ (من) للابتداء، وغرَضُ القرآن من استعمالِه أنْ يَشتركَ مع التّعبير بالإذاقةِ، ومع (إذا) الفُجائيّةِ في الدّلالةِ على إسراعِ الكافرين بالمكْرِ؛ فمن بدايةِ مخالطتِهم للرّحمةِ يَفجأون بالمكرِ، أي يوقعونه على جهة الفجأةِ والسّرعةِ، أي: وجودُ النّعمةِ لا يَستغرقُ الزّمانَ الذي يتعقّبُ النّقمةَ[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/96.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/96.

بَلاغةُ الاستعارةِ في التّعبيرِ بالمسّ في: ﴿مَسَّتْهُمْ﴾:

بيانُ الاستعارةِ تشبيهُ مُقاساةِ الشّدّةِ بالمسّ الذي يَشعرُ به الإنسانُ وبسببِه يتألّمُ

الاستعارةُ في قوله تعالى: ﴿مَسَّتْهُمْ﴾ هي استعارةٌ محسوسٍ لمعقولٍ بوجْهٍ عقليٍّ؛ استُعير المسُّ وهو حقيقةٌ في الأجسام وهو محسوسٌ؛ لمقاساةِ الشّدّةِ، وهو معقولٌ، وهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ ذُكرَ في تركيبها (المشبَّهُ به) الذي هو المستعارُ منه - وهو المسُّ - صريحًا، وحُذف (المشبَّهُ) الذي هو المستعارُ له - وهو مقاساةُ الشّدّة - ويتمثّلُ جمالُ هذه الاستعارةِ في الصّورة التي تُحدثُها في المُخَيّلةِ؛ إذ إنّها عبّرت عن مقاساة الشّدّة بسببِ الضّرّاء؛ وهو إحساسٌ نفسيٌّ غيرُ محسوسٍ بصورةِ محسوسٍ يَشعرُ به الإنسانُ ويتألّمُ بسببه، وهو المسُّ الذي هو التصاقٌ على وجهِ الإحساس، ولذلك فسّر المفسّرون ﴿مَسَّتْهُمْ﴾ بأنّها أصابتْهُم وخالطتْهُم حتى أحَسّوا بسوءِ أثرِها فيهم[1]، واعتبروه قيدًا جيء به للمُبالَغَة في بيان كمالِ خُبثهم وشدّةِ شكيمتِهم[2]، أي رغْمَ هذا الذي أحَسّوه سارعوا في الكفرِ والمكرِ.

نُكتةُ دخولِ ﴿إِذَا﴾ على جوابِ الشّرطِ:

جُحودٌ قدِ استَبْطَنوه سَترتْهُ الشّدّةُ وسُرعانَ ما كشفتْهُ الرّحمةُ

﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ﴾ أعطت فائدتَيْن:

الأولى: سرعةُ المكرِ في مقام الحمدِ والشّكرِ؛ أي "في الحالِ أقدَموا على المكرِ وسارَعوا إليه"[3]، وذلك كونُ (إذا) للمفاجأةِ، ومن معانيها أنّها حاليّةٌ، وتأتي جوابًا للشّرطِ بمنزلةِ الجوابِ بالفاء والفعلِ، أي لأنّ حرفَ المفاجأة يدلُّ على البدارِ والإسراعِ بمضمونِ الجملةِ، فيُفيدُ مُفادَ فاء التّعقيبِ التي يُؤتَى بها لربط جوابِ الشّرط بشرْطِه، فإذا جاء حرفُ المفاجأة أغنَى عنها[4]، والمعنى:

(1) البغوي، معالم التنزيل: 4/127، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/140.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/425.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/232.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/132.

أنّهم فاجؤوا المكر، أي: أوقعوه على جهة الفُجاءةِ والسّرعةِ، قال الزّمخشريُّ: "فإنْ قلتَ: ما وصفَهُم بسرعةِ المكرِ، فكيف صحّ قوله: ﴿أَسْرَعُ مَكْرًا﴾؟ قلتُ: بلى، دلّت على ذلك كلمةُ المفاجأةِ"[1].

الثّانية: جماليّةُ المجانسةِ؛ فقد تشابه اللّفظان (إذا) الشّرطيّةُ و(إذا) الفُجائيّةُ، وهو جناسٌ تامٌّ من نوعين؛ إذِ اتّفقتِ اللّفظتان في أنواع الحروف وأعدادِها، وهيئاتِها، لكنّهما من نوعين، فـ(إذا) الأولى شرطيّةٌ وهي اسمٌ، والثّانية فُجائيّةٌ وهي حرفٌ[2]، وتتجلّى فائدةُ هذه المجانسةُ في الميلِ إلى الإصغاءِ، والتّشوُّفِ إلى المعنى الذي يحملُه الكلامُ، فاللّفظُ المشتركُ إذا حُملَ على معنًى ثم جاء والمرادُ به معنًى آخرُ كان للنّفس تشوّفٌ إليه[3]، والمعنى هو أنّهم في بَأْسائهم كان ينخفضُ وراءَ خضوعِهم الظّاهرِ جحودٌ قد استبْطنوه، سترتْهُ الشّدّةُ وكشفتْهُ الرّحمةُ، فظهر مكنونُ نفوسِهم، وهو مكرُهم في آياتنا[4].

معنى اللّام في: ﴿لَهُم﴾:

لا يَنْفكُّ المشركون عن المكرِ في آياتِ الله

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّكْرٌ﴾ حرفُ الجرّ متعلّقٌ بخبرٍ محذوفٍ تقديرُه: (مستقرٌّ)، وهي لام التّبْيين، وقد بيّنت هنا أنّ مكرَهم مُستقرٌّ في آيات اللّه.

فائدةُ تقديمِ شبْهِ الجملةِ ﴿لَهُم﴾:

تلويحٌ للمؤمن بعِظَمِ مكرِ الكافرين ليحذرَ منه وليُسرعَ في مواجهتِه

قدّم البيانُ الإلهيُّ المسندَ ﴿لَهُم﴾ على المسنَدِ إليه ﴿مَّكْرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ﴾؛ لبيانِ مدَى عِظَم ذلك المكرِ، وسُرعتِهم في إعمالِه، وليكونَ المؤمنُ على حذرٍ منه، فيتجهّزَ له ويُسرعَ في مواجهتِه، كما أنّ في التّقديمِ إشارةً منَ اللّه للكافرين بأنّه يعلمُ بحالهم، وبخفايا نفوسِهم، وبمكرِهم قبل أنْ يفعَلوه.

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/6.
(2) السيوطي، التحبير في علم التفسير، ص: 77.
(3) ابن الأثير، شروح التلخيص: 4/411.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3543.

نُكتةُ تنكير ﴿مَّكْرٌ﴾:

عظمُ مكرِ الباغين وكثرتُه دليلٌ على شدّةِ خُبثِ نفوسِهم

أتى البيانُ الإلهيُّ بلفظِ المكرِ في قوله تعالى: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾ بصيغةِ النّكرةِ؛ لإفادة التّكثيرِ والتفخيم[1]، وهذا من معاني التّنكيرِ، أي: لهم مكرٌ كبيرٌ كثيرٌ في آياتنا، وهذا يدلُّ على شدّةِ خُبث نفوسِهم.

معنى ﴿فِيٓ﴾:

دَلالةُ الحرف (في) إيذانٌ بملابسةِ ومُصاحبةِ مكرِ الكافرين لآياتِ الله

دَلالة ﴿فِيٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾ للظّرفية المَجازيّةِ بمعنى (مع)، أي المرادُ منها الملابسةُ، أي لهم مكرٌ مصاحبٌ لآياتنا لا ينفكُّ عنها، ومعنى مكرِهم في الآيات أنّهم يمكرون مكرًا يتعلّقُ بها، وذلك أنّهم يوهِمون أنّ آياتِ القرآن غيرُ دالّةٍ على صدْقِ الرسول ﷺ، ويَزعمون أنّه لو أُنزلت عليه آيةٌ أخرى لآمنوا بها؛ وهم كاذبون في ذلك، وإنّما هم يُكذّبونهُ عنادًا ومُكابرةً وحِفاظًا على دينِهم في الشّركِ[2].

ويمكنُ أن تكونَ للظّرفيّةِ؛ لتُفيدَ تغلْغُلَ مكْرِهم في جميع آياتِنا القُرآنيّةِ أوِ الكونيّةِ وفي جميع ما تَشتملُ عليه الآياتُ.

نُكتةُ الإضافةِ: ﴿ءَايَاتِنَاۚ﴾:

المكرُ بآياتِ العظيمِ أمرٌ عظيمٌ

أضاف البيانُ الإلهيُّ الآياتِ إلى ضميرِ العظَمةِ: (نا)، فقال: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾؛ لتعظيمِ المضافِ وهو الآياتُ، وذلك لإدخالِ المهابةِ والطّمأنينةِ في نفوسِ المؤمنين بأنّ اللّه كافيهم مكْرَ الكافرين، والمهابةِ والخوفِ في قلوب الكافرين، وبيانًا لشناعة مكْرِهم بآيات اللّه؛ إذِ المكرُ بالعظيمِ عظيم، وتوبيخًا لهم؛ إذ رغْمَ أنّهم لا يَنفكّون عن آياتِه العظامِ لا يَنتفعون بها، فلو كانوا مُنْتفعين بالآيات اهتدَوا بها، ولكنّ حالَهم أنّهم إذا أتتْهُم رحمةٌ من بعد نِقمةٍ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/133.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 11/132.

لم يَعدّوها آيةً دالّةً على من أرسلَها لهم، مع أنّهم يعترفون بأنّه لا يقدرُ على إرسالِها وصرفِ الشّدّةِ إلّا هو سبحانه[1].

دلالة فعل الأمر ﴿قُلِ﴾:

عبَّر القرآنُ بفعْلِ الأمرِ ﴿قُلِ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرٗاۚ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ رسولَ اللّه ﷺ هو المبلِّغُ عنِ اللّه، وأنّ مكرَهم به هو كفرٌ باللّه، ولِيعلمَ هؤلاء الذين يَمكرون برسولِ اللّه أنّ اللّه ناصرُه، ومَكرُه بهم أسرعُ من مكرِهم بالنّبيِّ ﷺ، وللتّنبيهِ: "على أنّه تعالى قادرٌ على أنْ يُزيلَ عنهم تلك النِّعمَ، ويجعَلَهم مُنقادين للرّسولِ ﷺ مُطيعين له، تاركين لهذه الاعتراضاتِ الفاسدةِ"[2]؛ فطاعةُ رسولِ اللّه من طاعةِ اللّه.

رسـولُ الله هو المبلِّغُ عن الله، والمكـرُ بـه مكرٌ بالله سبحانه

فائدةُ العُدولِ عنِ الإضْمارِ:

أظهرَ البيانُ الإلهيُّ الاسْمَ الجليلَ ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرٗاۚ﴾، وعدلَ به عن إضمارٍ؛ لأنّ اسمَ (اللّه) هو اسمُ الذّاتِ الذي يجمعُ كلَّ صفاتِ الكمال، أي: قل لهم يا محمّدُ إنّ اللّه الذي لهُ الإحاطةُ الكاملةُ بكلّ شيءٍ هو أسرعُ مكرًا[3]. وفي ذلك ترهيبٌ للكافرين من مكْرِ اللّه العظيم، وطُمأنينةٌ للمؤمنين بنصرِه سبحانه.

التَّصريحُ باسْمِ الجليلِ تَرهيبٌ لـلـكـافـريـن وطُـمـأنـيـنَـةٌ للمؤمنين

نُكتةُ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميّةِ: ﴿ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرٗاۚ﴾:

عبّرَ القرآنُ الكريمُ بالجملةِ الاسميةِ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرٗاۚ﴾؛ للإشارةِ إلى الثُّبوتِ والدّوام، أي: أسْرعيّةُ مكْرِه سبحانهُ بالكافرين ثابتةٌ دائمةٌ، وجعلَ خبرَ الجملةِ الاسميةِ منَ المشتقّات؛ وهو اسمُ التّفضيلِ ﴿أَسۡرَعُ﴾ بما يوضحُ المعنى ويحدّدُ الدّلالةَ بشكلٍ أدقَّ، وذلك للإشارةِ إلى تميُّزِ سرعةِ مكْرِه بالكافرين؛ فمَكْرُهُ ليس كمكْرِهم بل هو أسرعُ من مكْرِهم؛ فقد دبّرَ عقابَهم قبل أن يُدبّروا

سُرعةُ مكْرِهم لا تُضاهي سُرعةَ مكْرِ الله بهم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/278.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/231.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 2/278.

كيدَهم[1]، فأعدّ لهم يومَ القيامةِ منَ العذاب الشّديدِ، وفي الدنيا منَ الفضيحةِ والخِزيِ والنَّكالِ، وجعلَ الحفظةَ يَكتبون مكْرَهم ويحفظونَهُ؛ لتكونَ حُجّةً عليهم يومَ القيامة وفضيحةً لهم[2].

فائدةُ اسْمِ التّفضيلِ في: ﴿أَسْرَعُ﴾:

مهما أسرعَ الماكرون فقد سَبقَ مكرُ الله مَكرَهم

دلّ استعمالُ فعْلِ التّفضيل ﴿أَسْرَعُ﴾ على أنّ مكرَهم كان سريعًا، ولكنّ مكرَ اللّه أسرعُ منه، والمعنى أنّ اللّه أعجلُ مكرًا بهم منهم بمكْرِهم بآياتِ اللّه[3]، وقد "قضى بعقابِهم قبل تدْبيرِهم مكايدَهم"[4].

وقد جاء ذلك مُتوافقًا مع أوجهٍ أخرى تفيدُ أنّ مكرَهم كان سريعًا، وهي التّعبيرُ بالذّوقِ الذي هو أوّلُ المخالطةِ ولفظُ (من) التي هي للابتداء و(إذا) الفُجائيّةُ؛ كأنّه قيل: أسْرَعوا جُهدهم في المكرِ[5].

بَلاغةُ المشاكلةِ في: ﴿ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾:

مكرُ اللهِ سبحانه يُقابلُ مكرَ الكافرين ويُبطلُه

سمّى القرآنُ عقوبةَ اللّه للكافرين وإبطالَ مَسعاهم مكْرًا، وردَّ مكرهم، وجاءتِ التّسميةُ بالمكرِ لوقوعِها في مقابلة مكْرِهم وجودًا وذِكرًا، والمعنى: اللّه أعجلُ عقوبةً وأشدُّ أخذًا وإخزاءً وأقدرُ على الجزاء، أي: عذابُه وتدبيرهُ أسرعُ وصولًا إلى الكافرين مما يأتي منهم في دفعِ الحقّ[6].

بَلاغةُ الاستعارةِ في التّعبيرِ عن إمهالِ الله لهم بالمكْرِ:

تصويرُ المعنَى للقارئِ بصورةٍ يَعرفُها يُنقشُ المعنَى في قلبِه

في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ استعارةٌ تمثيليّةٌ، حيث أطلقَ البيانُ القرآنيُّ على تأجيل اللّه عذابَهم وعلى إبطال اللّه تعالى مساعِيَهم في حال ظنِّهم أنْ قد نجحت اسْمَ المكْرِ، فكأنّ هيئةَ ذلك

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/109.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/232.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/133.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/97.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 9/96.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/133.

التأجيلِ وهيئةَ الإخفاقِ في خفائِهما عنهم كهيئةِ فعلِ الماكرِ الذي يدبّرُ في خفاءٍ، وقد حسّنتِ المشاكلةُ اللفظيّةُ هذا التّصويرَ وزادته حُسنًا[1].

والقصدُ الذي حملَتْه الاستعارةُ التّمثيليّةُ عبْرَ إيحاءاتِها وثَرائِها الدّلاليِّ تصويرُ ضعْفِ مكرِهم، ومن ثمّ إخفاقُه أمام مكْرِ اللّه سبحانه.

غرَضُ الفصْلِ: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾:

تهديدٌ للمشركين بأنّ ما يَظنّونَه من مكْرِهم خافيًا لا يخفَى على الله

لم يُعطفْ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ على قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾، وإنّما فُصِلَ بينهما؛ لِما بين الجُملتَين من كمالِ الانقطاع؛ لاختلافِهما إنشاءً وخبرًا، فالجملةُ الأولى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ إنشائيّةٌ، والجملةُ الثّانية: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ﴾ خبريّةٌ، ولهذا تعيّن الفصلُ بينهما.

وقد جاءت جملةُ ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ﴾ "استئنافَ خطابٍ للمشركين مباشرةً تهديدًا منَ اللّه، فلذلك فُصِلت عنِ التي قبْلَها لاختلاف المخاطَبِ"[2]، وهو استئنافٌ تعليليٌّ؛ إذ كانوا يَحسبون أنّهم يَمكرون بالنّبيّ ﷺ، وأنّ مكْرَهم يتمشّى عليه ولا يشعرُ به؛ فأعلمَهم اللّه بأنّ الملائكة الموكَّلين بإحصاء الأعمالِ يَكتبون ذلك[3].

فائدةُ تتابُعِ المؤكِّداتِ في: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾:

نصرُ الله وتأييدُه لنبيِّه ﷺ قدَرٌ محقّقٌ لا ريْبَ فيه

تتابعتِ المؤكِّداتُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ من ﴿إِنَّ﴾ التي تفيدُ التّوكيدَ، والجملةِ الاسميةِ التي تفيدُ الثُّبوتَ والدّوامَ، والاستئنافِ البيانيِّ الذي أكّدَ أسرعيّةَ مكرِه سبحانَهُ لتقريرِ نصْرِ اللّه وتأييدِه لنبيِّه ﷺ، وإبطالِه لمكْرِهم به، وبالقرآنِ وبالمؤمنين، وتحقيقِ الانتقامِ، وللتّنبيهِ على أنّ ما دبّروا في إخفائِه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/134.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/134.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/134.

لم يخْفَ على الحفَظةِ فضلًا أن يخفَى على اللّه تعالى[1]؛ إذ إنّهم كانوا يعتقدون خلافَ ذلك؛ فيَحسبون أنّهم يمكرون بالنّبيّ ﷺ، وأنّ مكْرَهم يتمشَّى عليه ولا يشعرُ به، فأعلمَهمُ اللّه بأنّ الملائكةَ الموكّلين بإحصاء الأعمال يكتبون ذلك[2]، فهو عالمٌ بأمورِهم وهم جاهلون بأموره، لا يدعُهم يُدبّرون كيدًا إلّا وقد سبّب له ما يجعلُه في نحورهم[3].

نُكتةُ إضافةِ الرُّسلِ إلى ضمير العظَمة في: ﴿رُسُلَنَا﴾:

تدبيرٌ عظيمٌ من ملائكةٍ يَستمِدّون عظَمتَهم منَ العظيمِ سبحانه

أضاف القرآنُ إلى لفظة الرّسلِ، وهم "الحفظةُ بلا خلافٍ"[4] ضميرَ العظَمة (نا) فقال: ﴿رُسُلَنَا﴾، ولم يقل رسُلَه، أو رسُلَ اللّه، لكونِ ذلك أبلغَ في تصويرِ تسخيرِ اللّه للملائكة في كتابةِ الأعمالِ منَ التّعبير بضميرِ الغَيبةِ (إنّ رسُلَه يكتبون) أو (إنّ رسُلَ اللّه يكتبون)؛ لأنّ في ضمير الجمعِ من تصويرِ العظَمةِ في هذا التّدبيرِ العظيم، والنّظامِ الدّقيقِ ما يشعرُ به كلُّ من لهُ ذوقٌ؛ إذَنِ النّكتةُ البلاغيّةُ هي:

أوّلًا: تعظيمُ اللّه ﷻ واختصاصهُ في تسخيرِ الملائكةِ في كتابة أعمالِ النّاس.

ثانيًا: تعظيمُ الملائكةِ الحفظةِ والكَتَبةِ، وتشريفُهم[5]، والمعنى: "إنّ رسُلنا أي على ما لهم منَ العظَمة بإضافتِهم إلينا"[6].

غرَضُ التّعبيرِ بالأفعالِ المضارعةِ ﴿يَكْتُبُونَ﴾ و﴿تَمْكُرُونَ﴾:

مكْرُ الكافرين مُستمرٌّ متجدّدٌ مُتكرّرٌ ولكنّ الحفَظةَ لهُ بالمِرصادِ

عبّرَ القرآنُ بصيغة المضارعِ في الفعلَيْن: ﴿يَكْتُبُونَ﴾ و﴿تَمْكُرُونَ﴾؛ للدّلالةِ على الاستمرارِ والتّجدُّدِ والتّكرار؛ ففي الأوّل:

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/109.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/6، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/134.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/97.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 6/31.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/133.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 2/278.

تدلُّ صيغةُ المضارع على أنّ كتابةَ الحفَظةِ الكَتَبةِ هي كتابةٌ مُتجدّدةٌ على سبيل الاستمرارِ باستمرارِ المكتوب[1]، وفي الثّاني: تدلُّ صيغةُ المضارع على استمرار مكْرِهم وتجدُّدِه، وأنّه طبعٌ من طبائعِهم، أي: تتكرّرُ كتابةُ الحفَظةِ كلّما يتكرّرُ مكْرُ الكافرين[2].

معنى: ﴿مَا﴾:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا تَمْكُرُونَ﴾ تحتمل وجهَيْن:

(مـــا) بـين المـوصـولـيّـةِ والمصدريّةِ دَلالةٌ عـلـى كـمـالِ الضَّبطِ والحِفظِ والعِنايةِ

الأوّل: اسْمٌ موصولٌ مبنيٌّ في محلّ نصبٍ مفعولٍ به ﴿تَمْكُرُونَ﴾ أَي: ما تمكرونه على تضمين تمكرُ معنى تعملُ في خفاءٍ، وغرضُ التّعبير بالاسم الموصولِ إرادةُ العُموم، للدّلالة على أنّ الحفظةَ يَكتبون كلَّ الذي تمكرونَه صغيرًا كان أو كبيرًا، متعلِّقًا بالقرآن أو بالنّبيّ ﷺ أو بالمؤمنين، وللإشارة إلى دقّةِ ما يعلمُه عنهم، وإلى أنّ ما يُدبّرونَه يعلمُه ﷺ في وقتِه فيكتبُه[3].

الثّاني: مصدريّةٌ، أَي: يَكتبون مكرَكُم، ويُشير التّعبيرُ بالمصدر إلى تأكيدِ كتابةِ المكْرِ المستمرِّ للماكرين في أيِّ زمنٍ كان.

بَلاغةُ الالتفات: ﴿تَمْكُرُونَ﴾:

قرأه الجمهورُ ﴿تَمْكُرُونَ﴾ بتاء الخطاب، وقرأ روحٌ عن يعقوبَ (ما يمكرون) بياء الغائب[4]، بكوْنِ الكلامِ موجَّهًا إلى النَّبيِّ ﷺ.

تلوينُ الخطابِ بالالتفاتِ إليهم مُـبـالـغـةٌ في الإعـلام بـحـالِ مكْرِهم

وفي الآية التفاتٌ منَ الغَيبة إلى الخطاب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ على قراءة (تَمكرون) بتاء الخطاب، وهو من عجيب الالتفاتِ الواقعِ في القرآن، ولعلّ النّكتةَ فيه المبالغةُ لهم في الإعلام بحال مَكرِهم[5]، والتّشديدُ في توبيخِهم[6]، من خلال

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/278.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/134.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3543.
(4) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/282.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 6/31.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/133.

تصويرِ معنى قولِه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرٗاۚ﴾؛ كأنَّه تعالى لما قال لنبيّه ﷺ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرٗاۚ﴾ أراد أنْ يوضّحَه لهم عِيانًا، ففاجأَهُم بتَجلّيهِ لهم دفعةً، فكلّمَهُم وأوضحَ لهم السّببَ في كونِه أسرعَ مكرًا؛ وهذا من لطيفِ الالتفاتِ.

فائدةُ الختم بالجملة الخبرية:

الإخبارُ بأنّ انتقامَ الله منَ الكافرين مُحقَّقٌ ومكرَهم لا يخفَى عليه

ختمتِ الآيةُ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾ وهي جملةٌ خبريّةٌ تحملُ معانيَ التّعليلِ من جهتِه تعالى لأسرعيّةِ مكْرِه، والتأكيدَ في كلّ مفرداتِها ونظْمِها تحقيقًا للانتقام منهم، وتنبيهًا على أنّ مكرَهم الخفيَّ غيرُ خافٍ على الحفَظة منَ الملائكة فضْلًا عنِ الخالقِ ﷻ الذي لا تخفَى عليه خافيةٌ في الأرض ولا في السّماء[1].

كما أنّ فيها تهديدًا، بأنّ المَلائكةَ الحفظةَ يَكتبون مَكْرَكم ويُحصون أعمالَكم؛ للحِسابِ عليها في الآخرةِ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المسُّ والإصابةُ والإذاقةُ:

الإصابةُ تمكّنٌ في الشّيء، والمسُّ خِفّةُ الإصابةِ، والإذاقةُ إحساسٌ بأدنَى إصابةٍ

تتقاربُ معاني المسِّ والإصابةِ والإذاقةِ، وتأتي مع العذابِ ومع الرّحمةِ، فليس هنالك تقييدٌ في الاستعمالِ[3]، ولهذا فُسّرَ المسُّ بالإصابة، وفُسّرتِ الإذاقةُ بالإصابة[4]، إلّا أنّه عند الرّجوعِ إلى المعنى اللُّغويِّ نلْحظُ بعضَ الفروقِ الدّقيقةِ بين هذه الألفاظِ:

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/133، وسيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/49.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/274.
(3) فاضل السامرائي، لمسات بيانية: 3/115 - 116.
(4) يقول ابن عاشور: "والمسّ: الإصابة، ولا يختصّ أحدهما بالخير والآخر بالشر، فالتعبير بأحدهما في جانب الحسنة، وبالآخر في جانب السيئة تفنن"، التحرير والتنوير: 4/68، وقد سبقه إلى ذلك الزمخشري الذي رأى أنّ المسّ مستعارٌ لمعنى الإصابة، فكان المعنى واحدًا، الكشاف: 1/436.

المسّ: جسُّ الشّيء باليد[1]، أو مباشرةُ الجسم، والمسُّ يُقال فيما يكونُ منه إدراكٌ بحاسّةِ اللّمسِ وحقيقتُه: وضعُ اليدِ على شيء ليُعرفَ وجودُه أو يُختبرَ حالُه[2].

والإصابةُ: الصّاد والواو والباء أصلٌ صحيحٌ يدلّ على نزول شيءٍ واستقرارِه قرارَه[3]، والإصابةُ: منَ الصّواب الذي هو ضدُّ الخطأ، وأصابَ السّهمُ: إذا لم يُخطئ، وأصابَ الشّيءَ: وجدَه، وأرادَه، وأصابتْه مصيبةٌ: أخذته[4]، والإصابةُ: النّزولُ بالشّيء، واللّحاقُ به خيراً كان النّازلُ أو شرّاً[5].

والإذاقةُ: الذّالُ والواو والقافُ أصلٌ واحدٌ، وهو اختبارُ الشّيءِ من جهة الطّعم، وأمرٌ مُستذاقٌ: أي مجرّبٌ معلومٌ[6]، والذّوقُ: هو وجودُ الطّعمِ بالفمِ، وأصلهُ فيما يقلُّ تناوُلهُ دونَ ما يكثرُ منهُ[7].

إذن: يشتركُ المسُّ والإذاقةُ في معنى الاتّصالِ الخفيفِ، والإدراكِ والاختبارِ.

ويتميّزُ المسُّ بأنّه: اختبارُ حالِ الشّيء باليد أو بالجسمِ، بينما الإذاقةُ: اختبارُ حال الشّيءِ من جهة الطّعم.

وأمّا الإصابةُ فإنّها تتميّزُ بالتّمكّن، وهو نزولُ شيءٍ واستقرارُه قرارَه.

فالمَسّ يُستعارُ للإصابة في إيصال الإدراك؛ إذ حقيقةُ المسِّ: الالتصاقُ الخفيفُ بين شيئين على وجهِ الإحساس، وللإشارة إلى خفّةِ الإصابة؛ فالمسّ أقلُّ تمكّنًا منَ الإصابة، وكأنّه مِن مقدّماتِها، أو أقلِّ درجاتِها، وأمّا الشّيءُ المصيبُ لشيء، فهو متمكّنٌ منه أو فيه، فالمسّ أخفُّ منَ الإصابة[8].

والإذاقةُ تُستعارُ للإصابة بجامعِ الإحساسِ في إيصال الإدراك؛ إذ حقيقةُ الإذاقة: إحساسُ طرفِ اللّسان بأحوال الطُّعوم، وتكونُ بأقلِّ ما يوجدُ به الطّعمُ، وتُستعملُ في

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مس).
(2) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مس).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صوب).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (صوب).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صوب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذوق).
(7) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ذوق).
(8) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/77، والشهاب، عناية القاضي: 3/59، والقاسمي، محاسن التأويل: 2/396.

الإعطاء القليلِ، وتشيرُ إلى الإحساس بأدنَى إصابةٍ، كإصابة اللّسان؛ فالإذاقةُ هي الإدراكُ والإحساسُ بأدنى إصابة[1].

الضّرّاءُ والضّرُّ:

الـضُّـرُّ خـلافُ الـنّـفـعِ وهـو شـدّةٌ مـاديّـةٌ أو مـعـنـويّـةٌ، والـضّـرّاءُ ضدُّ الـسّـرّاءِ وهـي مضرّةٌ ظاهرةٌ

لم تُفرّقِ المعاجمُ اللّغويّةُ بين الضُّرِّ والضّرّاء، ويظهر ذلك من خلال الرّجوعِ إلى معانيهما:

الضُّرّ والضَّرّ لغتان، فالضَّرّ المصدر، والضُّرّ الاسم، والضَّرّ: خلافُ النفع[2]، والضُّرّ: كلّ ما كان من سوءِ حالٍ وفقرٍ، أو شدّةٍ في بدن[3]، ضرّه: ألحقَ به أذًى أو مكروهًا، وكذا ضرّ به وأضرّه، وضارّه: سبب له نقصًا أو ضِيقًا، وهو عامٌّ في المادِّيِّ والمعنويِّ[4].

والضرّاء: نقيضُ السّرّاء، وهي الشّدّةُ والفقرُ والعذابُ، وقيل: الضرّاء: النّقصُ في الأموال والأنفُسِ[5].

إذن: تتقاربُ دلالةُ الضّرّاء والضُّرّ، إذ يشتركان بالشّدّةِ والأذى الذي يلحقُ الإنسان في بدنِه وأموالِه.

إلّا أنّه عند إمعان النَّظرِ في المعنى اللُّغويِّ، وفي الاستعمالِ القرآنيِّ لهما، يُلاحظُ أنّ لكلّ منهما مَلمحًا دلاليًّا يميّزُه عن الآخر؛ فالضّرّاءُ يقابلُها السّرّاء والنّعماءُ، والضُّرّ يقابلُه النّفعُ، والضُّرُّ أعمُّ منَ الضّرّاء؛ إذِ الضُّرُّ يشملُ المادِّيَّ والمعنويَّ، فيكونُ الضّرّ أذًى ظاهرًا كالفقرِ أوِ المرض، ويمكنُ أن يكونَ معنويًّا كالضّيق، وهذا ما أشار إليه العسكريُّ فقال: "الضّرّاء هي المضرّةُ الظّاهرةُ، وذلك أنّها خرجت مخرجَ الأحوالِ الظّاهرةِ، مثل: الحمراءِ، والبيضاءِ"[6].

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/23.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضر).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (ضرر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ضرر).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (ضرر).
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 198.

المكرُ والكيدُ:

الكيدُ أقوَى منَ المكرِ فهو دونَ علْمِ المكورِ به، بينما الكيدُ قد يكونُ بعلْمِه

المكرُ والكيدُ متقاربان دَلاليًّا، إذ يُعرَّفُ كلٌّ منهما بالآخرِ في اللّغة[1]، وكلٌّ منهما يكونُ محمودًا ومذمومًا، وإن كان استعمالُهم في المذموم أكثرَ، وكلاهما لا يكون إلّا مع تدبّرٍ ونظرٍ.

إلا أنّ لكلٍّ منهما بعضَ الملامح التي تُميّزُه؛ فالكيدُ أقوَى منَ المكرِ، والشّاهدُ أنّ الكيدَ يتعدَّى بنفسِه، بينما المكرُ يتعدَّى بحرفٍ، فيقال: كادَه يكيدُه، ومكرَ به، ولا يقال مكَرَهُ، والذي يتعدّى بنفسِه أقوَى.

والمكرُ تقديرُ ضررِ الغير من غير أن يُعلمَ به سواءً كان على وجهه أو لا، أي لا يكون إلّا في خفاءٍ، وأمّا الكيدُ فاسْمٌ لإيقاع المكروه بالغير قهرًا، سواءً علمَ أو لا، والشّاهدُ قولك: فلانٌ يُكايدُني، فسمّى فعلَه كيدًا وإنْ عَلمَ به[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، والزَّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (مكر)، (كيد).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 259 - 260، وعلي فهمي النزهي، الفروق اللغوية في تفسير الكلّمات القرآنية، ص: 205.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 19 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-16-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 19 : المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-16-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6365726 بتاريخ 2024/02/07م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»